الغلوُّ ذريعةُ الانتِقاص

قال ابن الرومي (٢٨٣هـ) [١]: (بحر المتقارب)

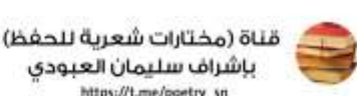
١ إذا مـا وَصَــفْــتَ امرأً لامرئٍ فَلا تَغْـلُ في وَصْــفِـه واقصِـــدِ
٢ فـإنَّــك إن تـغـلُ تغـلُ الظُّنو نُ فـيـهِ إلى الأمَـدِ الأَبـعـدِ
٣ فينقُصُ مِـن حيـث عَـظَّمْتَـه لفَضـــلِ المغيـبِ على المشــهـدِ

كثير من الأذكياء يتحاشى أن يأخذَ الناسُ عنه انطباعا كاذِبا ولو كان مَدحا، وذلك لمعرفته العميقة أن النَّاس بِقَدْرِ ما يرفعون المرءَ فوق مرتَبته، فإنهم إذا لم يجدوا في الواقع ما يصدِّق تلك الانطباعات المتوهَّمة فإنهم يقفزون فورا إلى الشطّ الآخر، ويبالغون في خَفْضه وحَطِّه حتى عن مَرْتبته الحقيقيَّة، فَبِقَدر الارتفاع الكاذب يكون الإسقاطُ الجائر، وقد أشار إلى هذا المعنى الدقيق أبو عبد الله ابن القيم –رحمه الله– فذكر أن (**مِنَ المدحِ ما يكون ذَما وموجِبا لسقوط مرتبة الممدوح عند الناس، فإنه يُمْدَح بما ليس فيه فتطالبه النفوس بما مُدح به، وتظنُّه عندَه، فلا تجده كذلك فتنقلب ذَمّا، ولو تُرِك بغير مدحٍ لم تحصُلْ له هذه المفسدة**[٢]).

---

[١] علي بن العباس بن جريج الرومي، شاعر كبير هَجَّاء، من طبقة المتنبي موهبةً، روميُّ الأصل، كان جدُّه من موالي بني العباس، وَلد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموما، قيل: دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد)، وكان ابن الرومي قد هَجاه.

[٢] زاد المعاد (٢: ٣١٣).



ويروي الدكتور أحمد خالد توفيق واقِعَةً طَريفة جرت له ذات يوم، وهي تؤكد بجلاء أن سقف انطباعات الثناء إذا كان مرتفعا فإنه يُحدث في نفس المتلقِّي رغبةً جامحةً في إعادة الأمور إلى نصابها، فيزيد على القدر الطبيعي دون قَصد، يقول الدكتور أحمد: (**أذكر أني وجدت مرةً في أحد مواقع الانترنت من يمتدحني بحرارة، إلى درجة أنه يعتبرني من أهم الكتاب العرب، وأنه من المفترض أن يعرفني الغرب ليضعوا كتبي مكان كتب هيمنغواي وكافكا وتولستوي.. طبعا لم أشعر بأي سرور، لأن هذا الكلام يبعد عن الحقيقة.. ولأنني أعرف ما سيحدث بالضبط، جلست في مكتبي صامتا وأنا أقرأ الشتائم التي تنهال على رأسي على الشبكة**[٣]).

ولعناية الشاعر ابن الرومي بالخَلَجات النفسيَّة الدقيقة واقتناصِها في شعره، فإنه التقطَ هذا المعنى الصحيح التقاطةً حسنة في أبياته الثلاثة، وبيَّن أن الغلو في الثناء يوقِع السامع في الأوهام الجانحة والخيالات البعيدة في تصور حالِ الممدوح الغائِب، فانقَلبَ حال ذلك المادح الذي أراد الإحسان إلى ضدِّ ذلك، حين أَشرعَ بابَ الانتقاص والثَّلب على مصراعيه.

[٣] زغازيغ (١٠٣)

